

الماجريات



المَجَرِيَات

إبراهيم بن عمر السكراؤ

دار الحضارة

شعبان ١٤٣٦هـ

ح) دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السكران، إبراهيم عمر

الماجريات./ إبراهيم بن عمر السكران-الرياض ١٤٣٦هـ

ص: ٠٠×٠٠٠ سم

ردمك: ٤- ٣٥٢- ٥٠٦- ٦٠٣- ٩٧٨

١- مواقع التواصل الاجتماعي ٢- الإنترنت والمجتمع ١- العنوان

ديوي ٠٠٤.٦٧ ١٤٣٦/٦٨٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٦٨٥٥

ردمك: ٤- ٣٥٢- ٥٠٦- ٦٠٣- ٩٧٨

حقوق الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب. ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تعويلاً ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مدخل	١١
التمييزات الحاكمة	٢٣
فقه الواقع والغرق في الواقع	٢٤
المتابعة المُتفرّجة والمتابعة المُنتجة	٢٧
المتابعة زمن التحصيل والمتابعة زمن العطاء	٢٨
توظيف الآلة والارتهان للآلة	٢٩
فصل السياسة ومرتبة السياسة	٣٠
الفصل الأول: موقع الماجريات	٣٥
مدخل	٣٧
البناء اللساني	٣٨
صحة الماجريتين	٤٠
الطاقة الذهنية	٤٠

٤٢ أهل الكمالات
٤٤ بواعث الماَجَرِيَّات
٤٧ تأصيل الماَجَرِيَّات
٤٩ الفصل الثاني: الماَجَرِيَّات الشبكية
٥١ مدخل
٥١ إدمان التواصل الشبكي
٥٦ التصفح القسري
٥٦ الأعراض الانسحابية
٥٧ إغراء أم مهرب؟
٥٨ التصفح المثلث
٦١ العمى الزمني
٦٢ مدمنو البيانات
٦٤ تسلسل التصفح
٦٤ النبأ المتدحرج
٦٦ لحظات التسلل
٦٨ الاستمراء بمواطأة النظراء
٦٩ المهارات الشبكية
٧٠ حجية كثرة الطَّرُق
٧٣ الفصل الثالث: الماَجَرِيَّات السياسية
٧٥ مدخل

الصفحة	الموضوع
٧٩	نموذج البشير الإبراهيمي (لباب السياسة وقشورها)
٧٩	القسم الأول: محيط النموذج
٧٩	لحظات التعرف
٨٣	قصة البرنامج المكثف
٩٤	مرحلة خزائن المدينة
١٠١	تصميم المشروع الإصلاحي
١٢٤	القسم الثاني: مكونات النموذج
١٢٤	التمييز بين اللباب والقشور
١٢٨	لصوص العقول
١٣٠	تأكيد المسافة بين المتخصص وغيره
١٣٣	نموذج مالك بن نبي (الدروشة السياسية)
١٣٣	القسم الأول: محيط النموذج
١٣٣	المراحل الأربع
١٣٦	سؤال الاستعمار
١٣٨	سؤال الحضارة
١٤٠	الأدوات والتصنيف
١٤٣	القسم الثاني: مكونات النموذج
١٤٣	تركيز المنظور
١٤٥	شواهد المعالجة
١٤٩	حجة تبادل السطوة

١٥٥ نموذج أبي الحسن الندوي (التفسير السياسي للإسلام)
١٥٥ القسم الأول: محيط النموذج.
١٥٥ العائلة العلمية
١٥٧ الإمكانات اللسانية
١٥٩ السؤال المضاد
١٦٢ الحضور المحتشم
١٦٦ القسم الثاني: مكونات النموذج
١٦٦ المآلات الأربع لتسييس الإسلام
١٦٩ الرسائل التقديرية المبكرة
١٧٢ الرسالة الأطروحة
١٧١ نموذج المسيري (السياسة الحديثة)
١٨١ القسم الأول: محيط النموذج
١٨١ منطقة الاشتغال
١٨٣ مكابدات المُنتج الرئيس
١٨٩ المحطة الماركسية الدمنهورية
١٩١ المحطة الفرانكفورتية
٢٠٢ محطة الخط الإسلامي
٢٠٥ الموقف الملتبس من العلمانية الجزئية
٢١٥ القسم الثاني: مكونات النموذج
٢١٥ الانفصال المؤقت

٢١٧ الانغلاق النسبي والعزلة النسبية
٢١٨ الكتابة الحديثية
٢٢٥ نموذج د. فريد الأنصاري (التضخم السياسي)
٢٢٥ القسم الأول: محيط النموذج
٢٢٥ المحور العلمي الأكاديمي
٢٣١ محور الكتابة التزكوية
٢٣٨ محور العمل الدعوي الحركي
٢٤٠ إرهابيات العمل الإسلامي بالمغرب
٢٥١ نشأة الجمعيات الإسلامية
٢٥٧ المنعطف الجلوني
٢٦٣ حقبة الاندماجات
٢٦٧ القسم الثاني: مكونات النموذج
٢٦٧ مشروع الفكر الدعوي
٢٦٩ التوحيد والوساطة
٢٧٥ تجربة التوحد المحورية
٢٧٨ الفجور السياسي
٢٨١ التضخم السياسي
٢٨٥ إشكالية الاستدلال
٢٩٦ الاستصنام السياسي
٣٠٢ الاستصنام المذهبي

٣٠٥	دوي الأخطاء الستة.....
٣٠٧	إلى التنظيم الفطري.....
٣١٣	حصائل وتعقيبات.....
٣١٣	خلاصات.....
٣١٨	الاستقامة للواقع.....
٣١٩	فكرة الصوم عن الأخبار.....
٣٢١	امتيازات الفتوة العلمية.....
٣٢٢	الغيرة على الزمن.....
٣٢٤	الزمن كأنفاس.....
٣٢٥	القياس إلى فضول العلم.....
٣٢٦	مصارف طاقة التفكير.....
٣٢٧	استبحار العلم.....
٣٢٩	المراجع العربية.....
٣٤٣	المراجع الأجنبية.....

مدخل

- ١ -

الحمد لله وبعد،،

تناول كتابه الذي عزم على قراءته ضمن برنامجه العلمي، وتهيأ للمطالعة، وقبل أن ينهمك في القراءة خطر له أن يفتح هاتفه الذكي ليأخذ جولة خاطفة على آخر المستجدات، وفي خلدته أنه لن يتجاوز عدة دقائق فقط، وبدأ ينقر الصفحات يسحبها تباعاً في شبكات التواصل، فرأى الناس يتحدثون عن واقعة حدثت قريباً، فتاقت نفسه لمعرفة تفصيل موجز عنها، أخذ يبحث قليلاً، يراوح بين المواقع والمعرفات، فلما استوعب الحدث، شدّه التهاب التعليقات على الحدث واشتعلت عدة وسوم على أثرها، ثم تفاجأ أن الأمر تطور من التعليق والتعقيب، إلى الردود ونقض كل تيار لموقف الآخر، ووقع وهو في أتون الجدل على تعليقات طريفة لبعض الظرفاء، وأوردود قاصمة لبعض الأذكياء، فأخذ يصور بعضها بهاتفه ويرسلها لبعض الأصدقاء والمجموعات التواصلية،

ثم بقي مترقبًا ردة فعل الأصدقاء، فجاءته بعض الردود ونشأ نقاش تواصلني داخلي آخر، ثم لم يستفق إلا على صوت المؤذن يفجؤه وقد حضر وقت الصلاة الأخرى وهو لم يغادر الصفحة الأول من كتابه الذي كان قد عزم على قطع شوط في مطالعته ..

هذه لقطة مكثفة وحزينة .. مقتطعة من شريط طالب علم قدّر الله عليه أن يعيش لحظة التكوين العلمي في عصر ثورة نظم الاتصالات وشبكات التواصل ..

ولا أحب أن أمثل أمام القارئ قصة مناقية .. بل كاتب هذه الأسطر كان لديه مهام علمية وعملية اصطدم بوقت تسليمها قد أظف واضطر للتأجيل .. فلما تفكر في نفسه رأى جزءًا من الأسباب يقع خلف الاختلاس الشبكي لوقته دون أن يشعر .. فقرر أن يدرس هذه الإشكالية، من خلال النصوص وتحليلات العلماء، وما كشفته الدراسات المعاصرة لهذه المعضلة، واستعادة الدافعية بمعايشة الخبرات العلمية والتجارب العملية في العصر الحديث ..

والحقيقة أن الأمر أكبر مما كنت أتصور .. فلم يعد مقصورًا على شكوى الشاب حديث العهد بطلب العلم والقراءة .. بل باتت الشكوى من الخاصة من المشتغلين بالعلم والدعوة .. وقد بث لي بعض الأصفياء تباريح عن مثل هذه الشكوى تنفّط لها أكباد المعرفة .. فبعض طلاب العلم يقول إنه تأخر عن إنجاز رسالته الأكاديمية بسبب انهماكه في شبكات التواصل وأنه وقع في مأزق مع القسم ويحتاج للتأجيل والتوسلات والشفاعات .. وآخر يذكر

أنه لم يستطع التوازن فاضطر لحذف حسابه مرارًا .. وآخر يذكر أنه لم يستطع كبح نفسه عن الدخول للشبكة عبر هاتفه الذكي فاضطر لإلقائه وشراء جهاز تقليدي لا يتيح خدمة الاتصال بشبكة الانترنت .. وآخر ذكر لي أنه بات يتصفح صامتًا ويتحاشى التعليق في شبكات التواصل حياةً من الناس أن يستشعروا غرقه في دوامة هذه الشبكات وهم يظنونه قامة علمية جادة ..

بل من أعجب ما وقفت عليه حادثة باح بها الفقيه الواعظ د. محمد المختار الشنقيطي .. وهي قصة لها دلالات تهز الوعي .. فالشيخ الشنقيطي معروف بابتعاده عن الدخول في قضايا الشأن العام الساخنة، وانكبابه على تدريس الفقه ومحاضرات المواعظ الإيمانية .. وقد تواتر النقل عن تنسكه وانجماعه، وانقباضه عن مسائل الجدل العامة، نحسبه والله حسيبه .. وفي أثناء محاضرة له سأله شاب سؤالاً يفور بالحرقة من معاناته من شبكات التواصل .. حيث يقول السائل:

(فضيلة الشيخ، ابتليت مثل غيري في هذه الأيام بكثرة تتبع الأخبار والأحداث، وإدمان برامج التواصل الاجتماعي، مما يؤثر على علاقتي بالقرآن، وله كثير من السليات، لدرجة أنني أدعو الله في سجودي أن يصرف الله قلبي عن هذه الملهيات، وأتركها أحيانًا ثم أعود، دلوني على الحل جزاكم الله خيرًا).

ولن تخطئ عينك أخي القارئ حرارة الألم في شكوى هذا السائل بسبب انفلات مقود التوازن منه، حتى أنه بات يتضرع لله

في سجوده بأن يخلصه من هذه المعاناة، ثم يحكي عن نفسه أنه يتخلص ثم يعود، ويريد حلًا نهائيًا لمعاناته.

فأجاب الشيخ الشنقيطي جوابًا مطولاً مؤصلاً علمياً، ففصل ولم يجب بجواب عام، بل ميّز في أحوال وأقسام الناس في التعامل مع هذه الشبكات، وبيّن الحال المحمود والمذموم .. وليس هذا كله هو الذي شدّني، بل الذي باغتني وأنا أستمع، وهجمت علي من واردات الذهول ما يعلم الله مداها، أن الشيخ صرح مستمعيه بواقعةٍ يتيمةٍ حدثت له شخصياً، وهو المنصرف المنقبض عن هذه الأمور أصلاً، يقول الشيخ:

(والله هذه الوسائل أمرها عجيب، جلست مرة من المرات على ما يسمى بتويتر، واسمه في النفس منه شيء، وفعلاً جلست بعد صلاة العشاء لأول مرة، حتى فوجئت بالسحر، ذهب علي وردي من الليل، مصيبة عظيمة، ما تشعر بشيء، ما تشعر، ومن يعرف هذه الأشياء يعرف هذا ..)^(١).

أوقفت الاستماع .. وأعدت المقطع مراراً .. وبقيت مندهشاً .. يا الله .. هذا الشنقيطي المعرض عن ما يخوض الناس فيه والمنشغل بشرح المتون الفقهية والإيمانيات يقول هذا عن نفسه في ليلة يتيمة واحدة؟! فكيف بأمم من الشباب صرعى

(١) جزء من محاضرة مسجلة على شبكة الانترنت:

(<https://www.youtube.com/watch?v=GakPWt39rKc>)

على جنبي شبكات التواصل في السنوات الذهبية للتحصيل
العلمي؟!

حسنًا، هذا طبعًا فيما يتعلق بإشكالية انفلات التوازن في
استثمار خيارات هذه الشبكات، وهذه الشبكات لها محتوى مختلف
متعدد سنشير له لاحقًا، لكن أحد هذه المحتويات كان له وزن في
التأثير لفت انتباهي، وهو ظاهرة الاستغراق في الأنباء السياسية.

دعني أكشف لك منذ البدء عن هذه الحالة النبئية التي شهدتها وكانت الدافع الأساس للتأمل والمقارنة، ثم كتابة هذه الدراسة، ذلك أنني كنت أطلع بكل ابتهاج مشهد مجموعات من الشباب كانت منكبة على العلم والدعوة وتستثمر وقتها بجدية وأعاتب نفسي أن ليتني كنت مثلهم، ثم إن كثيرًا منهم أقبل على متابعة الأخبار السياسية والنشرات المتتابعة والأحداث اليومية، ثم زاد الاهتمام أيضًا فصارت الاجتماعات تدور حول مستجدات الأحداث اليومية، ثم زاد الاهتمام حتى صارت عينه لا ترتفع عن هاتفه الذكي يتابع شبكات التواصل وآخر تطورات الأحداث، وتعليق مختلف الأطياف عليها، حتى أصبح جوهر نشاطه اليومي يلوب بين تتبع الأخبار في مصادرها، ثم متابعة التعليق عليها ومناقشتها.

حسنًا .. ما الذي ترتب على هذه الصورة الجديدة؟ ترتب عليها أمران متقابلان، فمن جهة تدهورت الشهية العلمية والدعوية لدى هذه الشريحة، وأصبح يستثقل القراءة الجادة، والبحوث طويلة

الأجل، والصبر على الدروس ومجالس العلم، بل حتى القراءات الثقافية الجادة أصبح يملّ منها، ويستملح فقط متابعة الأحداث السياسية والوقائع اليومية والمهاترات الفكرية ومشاغبات القضايا الصغيرة، ثم متابعة التعليق على هذه الأحداث في شبكات التواصل، وما موقف كل تيار من هذا الحدث، وكيف علق وعقّب كل رمز مشهور على الحدث، ورصد ومقارنة ذلك في كل حدث تقريباً.

هذا من جهة، لكن من جهة أخرى: صرت أرى في هذه الشريحة نمو الوعي بالواقع وتطور لغته السياسية، والواحد منهم لديه مخزون واضح من تفاصيل الأحداث يستثمره في البرهنة أثناء مناقشاته.

فكنت أقارن كثيراً وأتساءل: هل هذا الذي يجري صحيح وهي خبرات ممتازة يكتسبها طالب العلم؟ أم هذا الذي يجري خطأ وهو انقلاب لا واعي في المهمة الأساسية وتبادل مواقع بين الهامش والمتن؟

تارةً أتأمل في الأثر السلبي لهذا الانهماك السياسي على التكوين العلمي للشباب، إذ يلمس المراقب تصدع الجلد والدأب السابق، وضعف الصبر على مطالعة كتاب أو حفظ متن أو حضور درس، بل حتى التحرق للدعوة والترية وإلقاء الكلمات النافعة لم تعد قضية تمثل هاجساً كالسابق، وظهر الأثر واضحاً في تعطل

البناء العلمي، وبدا كأنه توقف عند زمن معين، حتى يشعر القريب من بعض هؤلاء أن التمويل العلمي توقف عند لحظة معينة وصار يصرف من الرصيد السابق، فلم تعد تلمس في مجلسه جديدًا معرفيًا يعكس الاستمرار في التغذية العلمية، والمجالس غالبًا تفضح الخطط العلمية للشخص لأنه يظهر في حديثه أثر آخر المقروءات والمحفوظات.

وتارةً أخرى أرى حادثة اللغة السياسية في خطاب مثل هذه الشريحة وكمية البيانات الحديثة التي يتسلّحون بها أثناء مناقشاتهم؛ فأشعر أن هذا مكتسب جيد لطالب العلم.

وهذه الحالة تتصاعد مع سخونة الأحداث والوقائع التي تتسابق الشبكات والفضائيات على ضخها، وبدأت أشاهد عددًا من المتميزين في العلم الشرعي والثقافة الجادة ينكمش شغفهم ببحث العلم وبثّه وتبليغه، وتشعر بأن ثمة ضيفًا خفيًا يزاحم برامجهم العلمية في غور منازلهم.

مكثت زمنًا أتأمل هذه الإشكالية، وطرحت في عدة مجالس آثارها المحتملة، وخصوصًا آثارها على الكوادر العلمية والإصلاحية للمجتمع المسلم، ولاسيما أننا أمام متغيرات عالمية هائلة في الضغط على الأصول الإسلامية في التصور والقيم والسلوك بما يعقد مسألة البناء المجتمعي، والذخيرة الحقيقية أمام هذه المتغيرات الضاغطة هي العلم والإيمان.

تقضي الأنباء اليومية المتدفقة وجدل الناس حولها، وتعقب مسلسل الشطحات العقدية والشذوذات الفقهية والتقلبات الفكرية التي تتناسل على شبكات التواصل، والانجرار إلى مطاردة المهارات الفكرية والقضايا الصغيرة وتواصل التحديق في ترقب مماحكاتها ومغايظاتها المتبادلة، والدوران اللاواعي في مثل هذه الدوامة، وخصوصًا عبر الهواتف الذكية اللصيقة، يفضي بالمرء إلى الانفصال التدريجي عن روح العمل والتنفيذ والإنتاج، والشعور بأن المشاهدة والتعليق هي الحالة الطبيعية التي يعيشها طالب العلم والمصلح.

لم تعد القضية قضية تبديد الزمن فقط، بل تكشف سقم جديد أشد تعقيدًا، ذلك أن هذه الحالة المشار لها، النابعة عن اضطراب التوازن في التصفح الشبكي؛ تنتهي تدريجيًا إلى انحلال الدافعية وهبوط العزيمة، ومما يساعد بصورة رئيسة في تعزيز هذا الركود والإخلاد والاستئامة للواقع قلة الاتصال الممازج للمشروعات

العلمية والعملية، أو بتعبير أدق: بُعد العهد بالتجارب العلمية والثقافية والإصلاحية، ذلك أن ترامي المسافة بين المرء والمُنتجين يوفر بيئة جيدة لاستمرار الإغفاء، بينما البيئة المستعرة بصخب الفاعلين تطرد النعاس وتلهب الحيوية وتحيي الدافعية . .

ومن جهة أخرى فإن إدمان متابعة الوقائع والأحداث والمجادلات الشبكية المتوالية يصوغ نمطًا من «التفكير الأفقي» لا يبصر إلا الغلاف والقشرة الخارجية من المتغيرات، ولا يعرف إلا المُنتج النهائي من التصورات الذي يقدم للمستهلك العام، لأنه بكل اختصار غادر معامل الإنتاج إلى رفوف التسوق، وبالتالي فلا يمكن ترميم هذا النمط واستصلاحه إلا بإعادته للعيش التأهيلي في «عالم الإنتاج» وملامسة تفاصيله وصعوباته ومكابداته، وعالم الإنتاج هو الخبرات العلمية والتجارب الإصلاحية.

لقد كنت، وما زلت، شديد القناعة أن من أعظم ما يداوي الاستئمامة للواقع والتفكير الأفقي معايشة تجارب المُنجزين في العلم والثقافة والإصلاح، ومخالطة تفاصيل كدحهم ومكابداتهم، بل كم من رمز حاضر اليوم في إعلام الثقافة والتغيير نتوهم أننا نعرفه، والواقع أن معرفتنا به غير دقيقة البتة، ولا تتجاوز القشرة الخارجية، وأرجو أن تكون النماذج المطروحة في الفصل الثالث من هذه الدراسة تبرهن جزءًا من هذه الفرضية.

وبسبب ذلك أدركت أن المهمة في معالجة هذا الموضوع مُرَّكبة، فنحن بحاجة لشخصيات علمية وفكرية ودعوية يكون لها

موقف مفصل مُدوّن تجاه إشكالية الانهماك المفرط في متابعة الأحداث، بحيث يمكن اعتباره «نموذجًا فكريًا»، وفي ذات الوقت نحن مفتقرون إلى معاشية جزء من تجارب هؤلاء لنستثمره في مداواة أسقام الدافعية التي ولّدها الاستغراق في الماجرّيات، ولكي نتصور موقف كل شخصية من المسألة محل البحث بشكل دقيق، ولأجل هذا الغرض فقد جعلت الفصل الثالث يدور حول شخصيات علمية وفكرية ودعوية، وكل نموذج منها يدور التعاطي معه على قسمين، القسم الأول لمحيط النموذج بحيث نسعى لأن نعيش فيه أيام تلك التجربة ومثابراتها ومقاساتها وخبراتها، كما نستلهم هذه الأيام من أجل «مدخل تاريخي» لفهم مرامي ومغزى النموذج المفهومي الذي تطرحه هذه الشخصية. وأما القسم الثاني من كل شخصية فهو عن مكونات النموذج بحيث نحاول جمع عناصره من خلال نصوص الشخصية محل الدراسة ونقرأه على ضوء ما بيدنا من معطيات تاريخية سبق أن درسناها، لنوفر فهما أفضل وأدق قدر الإمكان.

وسأحاول في هذه الورقة أن أستعرض أولاً الحدود الحاكمة لهذه الدراسة ومغزاها، ثم سنتعرض سويًا لمنزلة الماجرّيات في تصور علماء المسلمين، ثم سنتقل بعد ذلك إلى الماجرّيات الشبكية والدراسات الحديثة حولها وعلائق طالب العلم بها، وأما الماجرّيات السياسية فسنحاول فهمها من خلال دراسة نماذج علمية

وفكرية جادة ومنتجة كان لها موقف من هذه الإشكالية كما سبقت
الإشارة لذلك .

وأسأل الله أن يجزل المثوبة للأصدقاء الذين عرضت عليهم
مسودة الدراسة فنبهوني لتنقيحات وتصويبات ما كنت لأتنبه لها لولا
فضل الله ثم كريم مراجعتهم .

أبو عمر

الرياض - خواتيم رجب لعام ١٤٣٦ هـ

iosakran@gmail

التمييزات الحاكمة

قبل أن نستعرض مناقشة الماَجَريّات الشبكية والماَجَريّات السياسية فإننا نفتقر أولاً إلى أن نعيّن حدود المعالجة وارتفاع سقفها، فإن أساس دراستنا هذه هي نقد لظاهرة «مغالاة وإفراط في أصل صحيح مطلوب»، ولا أحصي كم رأيت من ينتقد ظاهرة «مغالاة وإفراط في أصل صحيح مطلوب» فيسبق إلى ذهن رهط من القراء أن المقصود استئصال الأصل الصحيح المطلوب من محتده واجتثائه من جذوره، لا تشذيب القدر المشتط المتجاوز فقط، وليس من الضروري أن يكون هذا بسبب خطأ في فهم القارئ، بل كثيراً ما يكون المعلوم هو الكاتب نفسه الذي استعمل تعابير خطائية مفتوحة حتى أنه يعسر التكهن أصلاً بحافة مغزاه.

ولذلك لا أكنم القارئ أن أكثر شعور كان يعتريني بقلق أثناء تقييد فصول وفقرات هذه الدراسة هو خشية توهم بعض القراء أن المراد جزّ الشجرة لا تقليم الغصن الناشز منها، ولذلك بات من

المحتم أن نعقد فصلاً واضحاً لرسم فيه على خريطة البحث حدود جراكنا، ونغرز الحواجز والقواطع التي تصون الاحتمالات الدلالية أن تروغ خارج حيز التنقيب، والذي ظهر لي أننا يمكن أن نعيّن حدود المراد والمقصود والمغزى في هذه الدراسة عبر توظيف خمسة تمييزات، وهي: (التمييز بين فقه الواقع والغرق في الواقع)، و(التمييز بين المتابعة المتفرجة والمتابعة المنتجة)، و(التمييز بين المتابعة زمن التحصيل والمتابعة زمن العطاء)، و(التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة)، و(التمييز بين فصل السياسة ومرتبة السياسة)، وسأحاول إيضاحها في الفقرات التالية.

١- التمييز بين فقه الواقع والغرق في الواقع:

من أسس التفكير التي ركبها الله ﷻ في العقل البشري أن الإنسان لا يمكن أن يعالج أمراً وهو لم يتصوره، هذا أمر يدركه أي إنسان مهما كانت خلفيته الدينية والثقافية، وقد أكدت هذا المبدأ العقلي نصوص الوحي، وهذه القضية بالرغم من بدهيتها التي يستغرب المرء من مجرد إثارتها أصلاً، إلا أنها تغيب في كثير من الأحيان لدواعٍ شتى.

هذه القضية يلخصها أهل العلم في مبدأ شهير وهو «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، وقد عبّر بعض أهل العلم عن بعض تطبيقاتها بمصطلح «فقه الواقع»، وأهل العلم يستخدمون هذا المصطلح في باب الحكم وفي باب الفتوى، كما ذكر أبو المعالي

الجويني (ت ٤٧٨هـ) في الغياثي اشتراط «فهم الواقعة» للحكم^(١)، ثم ذكر شمس الدين ابن القيم (ت ٧٥١هـ) في إعلام الموقعين أنه لا يمكن الفتوى والحكم إلا بنوعين الأول «فهم الواقع والفقهاء فيه» والثاني «فهم حكم الله»، ثم قال (فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله)^(٢)، وذكر أن هذين نوعين من الفقه فقال (فهاهنا نوعان من الفقه، لا بد للحاكم منهما: فقه في أحكام الحوادث الكلية، وفقه في نفس الواقع وأحوال الناس)^(٣)، ففهم الواقع وأحوال الناس نوع من الفقه، كما أن معرفة القواعد الشرعية الكلية نوع من الفقه، ويتركب من هذين الفقهاء التنزيل الصحيح للقواعد الشرعية على الواقع.

وهذه التأصيلات السابقة وإن وردت في موضع خاص وهو باب الحكم وباب الفتوى، إلا أن معناها عام لأنه معنى معقول متفرع عن أصل كلي لا يخالف فيه أحد من أهل العلم، وإنما شجر بعض السجال المعاصر حول مصطلح «فقه الواقع» لمُحرِّكات أخرى لا صلة لها بعلمية هذا المفهوم، وإنما لتوهم بعض نقاده أن

(١) الجويني، الغياثي، تحقيق عبد العظيم الديب، مطبعة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، (ص: ٣٠٠-٣٠١).

(٢) ابن القيم، إعلام الموقعين، تحقيق رائد أبي علفة، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، (ص: ٦٦).

(٣) ابن القيم، الطرق الحكمية، تحقيق نايف الحمد، طبعة المجمع، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ، (ص: ٧/١).

هذا المصطلح أداة يتوصل بها بعضهم لخيارات سياسية اجتهادية خاصة، والعالم المحقق لا يناوئ المعاني والاصطلاحات الإسلامية الصحيحة لأجل ظنه أن مخالفه يتوصل بها لخيار اجتهادي له، فإن هذا نظير من يثلب علم «مقاصد الشريعة» لأن بعض الحدائين يتذرع به للبرلة بعض الأحكام الشرعية، أو من يتوجس من علم «أسباب النزول» لأن بعض الحدائين سعى لتوظيفه للقول بـ«تاريخية» الأحكام الشرعية، وأشباه هذه المواقف كثيرة، وهي أحد تطبيقات «فرض المسألة الخاطئة على الدليل الصحيح في ذاته» وهي أحد المراتب الأربع في تقسيم العلم إلى «مسائل ودلائل»، وسيأتي لها مزيد توضيح بإذن الله.

والعالم اليوم تلهث به المتغيرات المتلاحقة، والمجتمعات المسلمة بكيفية خاصة تمر تركيبها الثقافية والقيمية بتقلبات وانعطافات متسارعة، ومن يطمح للنهضة بأتمته والقيام بمشروعات علمية وإصلاحية تبيض وجهه عند ربه؛ فستعذر عليه ذلك البتة دون «فقه الواقع» بأن يتصور كيف تشكل الوعي المعاصر؟ وماهي موارده الفكرية؟ وكيف تتحول محرّكات قناعاته؟ وما محتوى معجمه اللغوي التداولي بالمعنى العام لمصطلح اللغة، ولذلك فإن علماءنا المؤثرين -تغمدهم الله برحمته- الذين مازالت ذكراهم عبقة في نفوسنا كانوا في غاية القرب والتماسّ والمخالطة للناس ومعرفة احتياجاتهم ونمط تفكيرهم، فأثمرت جهودهم وبارك الله في عملهم.

ومن يميل للانكفاء والغياب عن «فقه الواقع» فهذا له بواعث مختلفة جدًا، فقد يكون ذا تكوين روحاني لا يطيق صخب الواقع، وقد يكون مستغرقًا في علم نظري بميول ومتمعة ذاتية حتى تجده منصرفًا عن التزامات شؤونه الشخصية فضلًا عن تتبع قضايا الشأن العام، وقد يكون غير مقتنع أصلًا بجدوى «فقه الواقع» وله اجتهاد في أن غيره من العلوم أنفع منه أو أن هذا ليس هو التوقيت المناسب لفقه الواقع، وقد يكون المناوئ لفقه الواقع ليس للدافع نفسي ولا علمي وإنما قد يكون من اتجاه الغلو السلطاني الذي يرى أن هناك علاقة عكسية بين فقه الواقع والطاعة الكسروية، وقد يكون لبواعث أخرى.

ولكن هل هذا كل شيء؟ هل القضية هي بهذا الإطلاق فقط وهو أننا يجب أن نهتم بفقه الواقع لنتمكن من إصلاحه؟ أم أن ثمة إشكاليات أخرى؟ الحقيقة أن كثيرًا ممن اقتنع بضرورة «فقه الواقع» في العلم والإصلاح، تحول لا شعوريًا إلى الغطس في الماَجَريَّات والانغماس في دوامة الأحداث والوقائع حتى تجاوز القدر المطلوب، وخصوصًا عبر الأدوات الشبكية المعاصرة، والأحداث والوقائع السياسية، والجدل والمهاترات الفكرية والقضايا الصغيرة، فخرج عن «فقه الواقع» إلى «الغرق في وحل الواقع»، وهذه الدراسة ستحاول تحليل ومناقشة هذا القدر الزائد بإذن الله.

٢- التمييز بين المتابعة المُتفرِّجة والمتابعة المُنتِجة:

يقتنع كثير من المعنيين بالعلم والإصلاح بأهمية متابعة الواقع

السياسي والفكري، ومن خلال متابعة واستيعاب وتصور بنية الوعي الاجتماعي ومكونات وحدود التغيير تؤثر هذه المتابعة للواقع بصورة مدهشة في زيادة الإنتاج كمًا، وفي زيادة «فعالية» الإنتاج كيفًا، وكل هذه مظاهر إيجابية مشرقة ومبهجة، وهذا ما يمكن تسميته «المتابعة المنتجة».

ولكن ليست الأمور بهذا المسار السعيد دومًا، فثمة قطاع واسع للأسف ممن يتابع الواقع الفكري والسياسي، وبمقصود نبيل وحسن، لا تتمخض متابعتهم عن إنتاج لا كمًا ولا كيفًا، بل يتحول لكائن متفرج مراقب، منخرط في سلسلة المآجريات الفكرية والسياسية، ويتصرم عمره في هذا المشهد الحزين، وهذا ما يمكن تسميته «المتابعة المتفرجة». ومن أسباب عدم وعيه بهذه الإشكالية هو توهمه أنه يتابع ويلحق المآجريات الفكرية والسياسية لأهمية الوعي بالواقع حتى يستطيع الإنسان التأثير فيه، ولكن الذي يجري فعليًا أن الأمر مجرد مراقبة وتفرج من مدرجات الجماهير السلبية، وهذه «المتابعة المتفرجة» ستكون جزءًا من عينات البحث في هذه الرسالة.

٣- التمييز بين المتابعة زمن التحصيل والمتابعة زمن العطاء:

متابعة الواقع الفكري والسياسي ليست معطى مصمّمًا ذا درجة واحدة، بل هو عمل يتفاوت قدره بحسب المرحلة العمرية، أو -بشكل أدق- بحسب المرحلة الدعوية والإصلاحية للمتابع، فالشاب الذي

في السنوات الذهبية للتحصيل العلمي يفترض أن يكون انكبابه وتركيزه الأساس على استثمار هذه اللحظات التي تشكل ثروة ثمينة لا تتكرر، لا من حيث القوة البدنية وقلة الموانع الصحية، ولا من حيث صفاء الذهن وقلة الأعباء الاجتماعية، ولا من حيث النشاط النفسي وفوران الهمة، بما يعني أن زهرة وقته في هذه المرحلة الذهبية تكون للتحصيل العلمي والتزكية الإيمانية، وأما فضول وقته وهوامشه فيطلع فيها على مجملات الواقع الفكري والسياسي دون تتبع التفاصيل. وأما إذا تجاوز المرء مرحلة التحصيل العلمي وبدأت مرحلة العطاء والنشر والبت فيزيد من قدر متابعة الواقع بما يحقق أغراضه اتجاهاً وكماً وكيفاً.

والشطر الأكبر من هموم هذه الدراسة موجّهة للشباب في المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي.

٤- التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة:

من أكثر الظواهر الإيجابية إدهاشاً اليوم تلك الثلة من المبدعين الذين اهتملوا فرص النشر التي وفرتها ثورة نظم الاتصالات الحديثة، الشبكية والفضائية، وأخذوا يوظفونها في بث الأمور النافعة للناس في دينهم وديناهم، وبصيغ شعبية مبسطة، يثون الإيمان وتدبر القرآن ومسائل الفقه التي يكثر سؤال الناس عنها والوعي الحقوقي وشعور الجسد الواحد بجراحات المسلمين والمعلومات الطبية والتقنية والتنمية الجديدة ونحوها.

ولكن ليس هذا كل شيء أيضًا، فهناك شريحة واسعة ممن دخلت هذا القطاع النشري بهذا المقصد النبيل لكن السفينة لم تنشر أشرعتها باتجاه الشاطئ، فتحولوا من مُتَّجِنين يوظفون الآلة إلى مُستَبَعين تخرطهم الآلة في ماجرياتها، وتحولوا من مُتَّجِنين لأشرف ما يكون في هذه الوسائل من العلم والإيمان، إلى متلقين مستهلكين لأدنى ما تُنتِجه هذه الشبكات من المهارات الفكرية والشائعات السياسية، ونحن في هذه الدراسة نحاول فهم وتفكيك هذا النوع الثاني وهو الارتهان للآلة والاستبعاد لها وضمور نفسية البدايات المُنتِجة.

٥- التمييز بين فصل السياسة ومرتبة السياسة:

ما هي منزلة السياسة في سلم المطالب؟ وما موقعها ضمن جدول الاهتمامات؟ من تدبر الواقع ربما يلاحظ أن هناك طريقين مفترقين رئيسيين، هما طريق فصل السياسة عن الدين، وطريق وصل السياسة بالدين - فإما الطريق الثاني - طريق وصل السياسة بالدين - فيتفرع إلى ثلاثة دروب فرعية، يمكن تسميتها السلطنة والتعميم والتخصص، بما يعني أن حصيلة هذا التمييز ينتج لنا أربعة مواقف: العلمنة والسلطنة والتعميم والتخصص، وسنحاول إيضاحها فيما يلي.

فأما اتجاه العلمنة أو اتجاه «الفصل» فيتبناه التيار العلماني صراحةً أو ضمناً، ويعني به فصل السياسة عن الأحكام الشرعية،

وهو اتجاه منحرف معروف، وكتبت فيه دراسات متخصصة كثيرة. وأما اتجاه «التعميم» فهو اتجاه يقابل الاتجاه العلماني ويرى أن السياسة من صميم الدين، ويرى أن أس البلاء هو النظم السياسية الفاسدة، ويدعو -صراحةً أو ضمناً- إلى مطالبة عامة المشتغلين بالعلم والإصلاح لترك ما بأيديهم والاشتغال بالعمل السياسي والإصلاح السياسي والتغيير السياسي، ويميل هذا الاتجاه للانهماك في متابعة تفاصيل الأحداث والماجريات السياسية، ويعمر مجالسه وصوالينه وندواته بالتعليق على الأحداث السياسية وعرض الأفكار السياسية، ولا يكف هذا الاتجاه عن اللمز والتهكم بمن ينشر فتوى في الطهارة أو مفطرات الصيام ونحوها، ويعتبر أصحاب هذا التيار أن الاشتغال بمثل هذه المسائل الفقهية تغيب للأمة عن قضاياها الكبرى التي هي القضايا السياسية.

وأما اتجاه «السلطنة»، أعني الغلو السلطاني، فقد ظهر في المجتمع المسلم كرد فعل تجاوزي على الاتجاه الثاني ضمن ظروف استقطابات سياسية تاريخية معروفة، حيث يقر أصحاب هذا الاتجاه أن السياسة من الدين ومن صميم الشريعة، ومن هذا الوجه يخالفون العلمانيين، لكنهم يرون أن الاشتغال بها حق حصري للمستبد، وأن المستبد هو المتفرد بمعرفة المصالح، وأن اشتغال غيره بها يثير الفتن ويزعزع الاستقرار، ويتظاهر أصحاب هذا الاتجاه دومًا بالحث على الاشتغال بالعلم، لكنهم لا يثيرون هذا إلا في وجه المخالف الحزبي، أما من يوافقهم في الكسروية فيرون

أن انهماكه السياسي من الذب عن المنهج، وهذه التأصيلات لا يخفى الباحث الموضوعي أن باعثها المضر هو رهانات الاستتباع السياسي لا التحقيق العلمي المحرر، وهي تجاوز صريح للقدر الشرعي في معاني نصوص الطاعة الذي قرره أئمة أهل السنة.

وكل هذه الاتجاهات الثلاثة مخالفة لطريقة أهل السنة والمنهج الشرعي الصحيح في فهم الإسلام، والصواب في منزلة السياسة أنها «تخصص» مطلوب، ومعنى كونها «تخصص» هو التمييز بين الاطلاع الإجمالي والاطلاع التفصيلي، أي أن «المتخصص» ينبغي له استيعاب «تفاصيلها» بقدر إمكانه والانتقاع لها والإبداع فيها، وأما «غير المتخصص» فيكفيه أن يعرف «مجملات» الواقع السياسي.

وطبقًا لهذا التصور فإن السياسة جزء من الشريعة لكن لا يتصدى لها إلا ذو الأهلية، سواء المؤهل في الأحكام الفقهية للسياسة الشرعية فيما يخص أحكامها، أو المؤهل في الخبرة السياسية المعاصرة فيما يخص فنياتها وإجراءاتها، وأما دعوة عامة الفقهاء والمصلحين وطلاب العلم والشباب والعامّة للانهماك في المتابعة التفصيلية للأحداث السياسية والعمل السياسي فخطأ، كما أن حصر حق الرأي السياسي في المستبد خطأ أيضًا، وأما فصل السياسة عن الأحكام الشرعية فمناقضة صريحة لقطعيات القرآن والسنة.

وطبقًا لهذا التصور التخصصي للسياسة أيضًا فإن هذا الاتجاه لا يعتبر الاشتغال السياسي هو المفتاح الوحيد للإصلاح، بل هو وسيلة معتبرة لكن ضمن شبكة وسائل كثيرة علمية ودعوية لا يجوز تقزيمها في سياق تضخيم مفتاحية الاشتغال السياسي في الإصلاح، بل يجب أن يوضع في الرف المناسب لحجمه.

هذه هي الاتجاهات الأربع لمنزلة السياسة وهي: العلمنة والسلطنة والتعميم والتخصص.

ونحن في هذه الدراسة لن نناقش موقف العلمنة والسلطنة لأنه سبق أن كُتِبَ عنهما دراسات وافية، وإنما سنناقش موقف «تعميم الاشتغال السياسي»، من خلال مواقف العلماء المصلحين، والمفكرين الإسلاميين، تجاه إشكالية «القدر الزائد من الانهماك السياسي» والموقف منها، أو بعبارة أخرى نحن نقف في هذه الدراسة على درب «التخصص» نناقش الأشقاء على درب «التعميم»، أما السائرون في طريق العلمنة ودرب السلطنة فهم خارج حدود هذا المجلس والنقاش.

هذه التميزات الخمسة هي الأطر المُنظمة لحدود هذه الورقة.

الفصل الأول

موقع الماڤرّيات

مدخل

في فواتح مجلد «الألوهية» من فتاوى ورسائل أبي العباس ابن تيمية جُمع من كلام الإمام فصول ساح فيها قلمه بكلام في غاية الشرف والفضل عن حقيقة افتقار الإنسان إلى الله وأسرار اضطرابه للاستعانة بربه، والآلام التي يتكبدها ابن آدم حين يتعلق بغير الله، ووقف على معانٍ وشواهد في النصوص الشرعية وأغوار النفس البشرية في غاية العجب، وهذا الموضوع من كلام الإمام أثيرٌ على نفسي، وقد راجعته مرارًا، وما زلت أتذكر أول مرة قرأته وكيف استحوذت علي صدمة الاكتشاف، وشعرت كم كنت مغيبًا عن هذه المعاني برغم عظمتها.

والمهم أنه في ثنايا حديث الشيخ عن هذه الآلام، أو حسب تعبير الشيخ «فإن هذا من الذنوب التي تُعذب النفس بها وعليها»، أي أن الذنب كما أنه سبب لعذاب آخر منفصل عنه، يكون هو ذاته عذابًا على صاحبه بدل أن يتلذذ به، ثم تحدث الشيخ رحمته عن ما يتسلسل بعد ذلك، وهو أن المذنب يتطلب ما يستدفع به هذه

الهموم، حيث يقول الإمام كَلَّمَ الله:

فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالبًا ما لم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه؛ فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور، وذكر ماجريّات النفس والهزل واللعب، ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك، ولا يستغني القلب إلا بعبادة الله تعالى^(١).

البناء اللساني:

ذكر الإمام ابن تيمية في نصه السابق من جملة ما يتسلى به محزون الخطايا ذكر «ماجرّيات» النفس والهزل واللعب، وكلمة «الماجرّيات» تعني الأحداث والوقائع والأخبار، وهي في أصل بنائها اللغوي تم توليدها بأسلوب التركيب المزجي، فأصلها من كلمتين وهما (ما) الموصولية بمعنى الذي، و(جرى) بمعنى وقع وحدث، فلما اتسع استخدامهم لها وكثر ترددها على لسانهم جُمعت الكلمتان في كلمة واحدة، وعملت كمفردة واحدة «ماجرّى»، ثم أُدخلت عليها اللواصق كألف التعريف «الماجرّى»، وجمعت جمع المؤنث السالم «الماجرّيات»، وهي من جنس كلمة الماصدقات والماورائيات والمابعد ونحوها.

ولم يعتبر هذا البناء من قبيل قاعدة النحت كما ذهب بعض

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (ص: ٥٤/١).

المعاصرين، لأن أهل الاختصاص يفرقون بين النحت والتركيب المزجي، بأن النحت أداة اختزال بحيث يسقط في الكلمة الجديدة بعض عناصر الكلمات السابقة بخلاف التركيب المزجي الذي يحتفظ بعناصر الأصل، ولذلك لما ثار في هذا العصر مسألة هل يستعمل النحت للتوليد الاصطلاحي في العلوم الحديثة؟ كان من أعظم حجج الممانعين أن جوهر وظيفة النحت في اللسان العربي كان الاختزال والاختصار لكثرة الترداد، وليس التوليد الوضعي لمعنى جديد، كما قال أبو الحسين ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) مع أنه رأس المتقدمين في توسيع النحت ومع ذلك قال عن النحت «وهو جنس من الاختصار»^(١)، وهي مسألة جدلية بين فطاحلة اللغويين المعاصرين طويلة الذيل معروفة في مظانها.

وكلمة «الماجريات» استعملها المؤرخون والأدباء في العصر الإسلامي الوسيط كما نجدها عند ابن خلكان والسخاوي وغيرهم بمعنى الأخبار والأحداث، ثم صارت تعرض في كلام علماء السلوك الإسلامي للتعبير عن اشتغال المسلم بالأخبار والأحداث التي لا نفع فيها، كما سبق النقل عن أبي العباس ابن تيمية في كون من هجمت عليه هموم الخطايا يسلي نفسه بذكر ماجريات النفس والهزل واللعب.

(١) ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة، تحقيق د. عمر الطباع، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، (ص: ٢٦٣)؛ السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وزملائه، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة، (ص: ٤٨٢/١).

صحابه الماجريّاتين:

وكان مما يتعاقد به أهل العلم في سلوكهم إلى الله المراسلات التزكوية، وقد حُفِظت منها نماذج كثيرة، وفي رسالة أرسلها ابن القيم لأحد إخوانه يدعى علاء الدين شرح فيها بعض معاني الهداية والإمامة في الدين وجمعية القلب على الله ومشاهد الصلاة الستة، واستفتح ابن القيم رسالته لصاحبه هذه بشرح معنى كون الرجل مباركاً حيث يقول:

(فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به، قال الله إخباراً عن المسيح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ ..، ومن خلا من هذا فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقاءه، فإنه يضيع الوقت في الماجريّات ويفسد القلب)^(١).

يرصد ابن القيم هنا حالة الشخص الذي إذا اجتمعت به أخذ يحدثك عن الماجريّات والأخبار والأحداث التي لا تنفع، ويعتبر هذا من خلو البركة بحسبه من هذا الشخص.

الطاقة الذهنية:

هذا المدخل السابق في النظر للإشكالية هو من جهة حديث المجالس والاجتماعات، والأمر لا يقتصر على هذا عند ابن القيم، بل في موضع آخر من كتبه عالج الموضوع من زاوية أدق وأعمق،

(١) ابن القيم، رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، تحقيق عبد الله المديفر، طبعة المجمع، (ص: ٣).

وهي زاوية «الطاقة الذهنية»، فالإنسان يملك في النهاية كمية معينة من وقود التفكير، فينبغي للمرء أن يكون حاذقاً في صرف طاقته الذهنية في المواد المجدية، يقول ابن القيم في فصل عقده في كتابه «الفوائد» في بيان أساس هذا المفهوم (أصل الخير والشر من قبل التفكير، فإن الفكر مبدأ الإرادة)^(١).

ثم واصل وسبر وقسّم مسارات التفكير البشري الثمانية فقال:
(وأنتع الفكر: الفكر في مصالح المعاد، وفي طرق اجتلابها، وفي دفع مفسد المعاد، وفي طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار، ويلها أربعة: فكر في مصالح الدنيا، وطرق تحصيلها، وفكر في مفسد الدنيا، وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء)^(٢).

ثم بدأ ابن القيم يستعرض نماذج من الأفكار الشريفة، وأتبعها بذكر نماذج أخرى من الأفكار الرديئة فقال:

(وبإزاء هذه الأفكار: الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر هذا الخلق ..، ومنها الفكر في جزئيات أحوال الناس، وماجزياتهم، ومداخلهم ومخارجهم، وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلّة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة)^(٣).

(١) ابن القيم، الفوائد، تحقيق عزيز شمس، طبعة المجمع، (ص: ٢٨٧).

(٢) المصدر السابق، ذات الصفحة.

(٣) المصدر السابق، (ص: ٢٨٨).

فهذا تحليل بديع لكون المنطلق هو (التفكير)، وأن من الخسارة أن يتم إحراق طاقة التفكير في «الماجريات» وأحوال الناس، بدل أن يتم تركيز مجهر التفكير في الموضوعات النافعة، فليس الإشكال أن تقضى الاجتماعات بذكر الماجريات، بل يرى ابن القيم أنه حتى في خلوة المرء بنفسه يجب أن لا يستهلك طاقته الذهنية في التفكير في هذه الحكايات والأحداث الجزئية العابرة، بل يستعملها استعمالاً منظماً في الأهداف الفاضلة الكبرى.

أهل الكمالات:

هذه الرصديات السابقة التي ذكرها الإمامان ابن تيمية وابن القيم تدور حول شريحة أضاعت وقتها في الماجريات، سواء لتسليّة النفس عن حزن الخطايا، أو في ثرثرة المجالس، أو تبذير طاقة التفكير. وفي رصد آخر يقتنص ابن القيم الوجه المقابل من المشهد، وهو الشريحة التي تعلقت بالمعالي وكيف تعاملت مع الماجريات، ففي كتابه «مدارج السالكين» تعرض ابن القيم لشرح منزلة السر وذكر الأخفاء الذين جاءت فيهم النصوص، كالذي رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: (إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي)^(١)، وكان من جملة ما ذكر من خصائصهم وأحوالهم أن قال:

(أهل هذه الطبقة، أثقل شيء عليهم: البحث عن ماجريات الناس،

(١) صحيح مسلم، (٢٩٦٥).

وطلب تعرف أحوالهم، وأثقل ما على قلوبهم سماعها، فهم مشغولون عنها بشأنهم، فإذا اشتغلوا بما لا يعينهم منها فاتهم ما هو أعظم عناية لهم، وإذا عدَّ غيرهم الاشتغال بذلك وسماعه من باب الظرف والأدب وستر الأحوال؛ كان هذا من خدع النفوس وتلييسها، فإنه يحط الهمم العالية من أوجها إلى حضيضها، وربما يعز عليه أن يحصل همة أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه، فأهل الهمم والفطن الناقبة لا يفتحون من آذانهم وقلوبهم طريقًا إلى ذلك، إلا ما تقاضاه الأمر وكانت مصلحته أرجح، وما عداه فبطالة وحط مرتبة^(١).

ففي هذه المعالجة لابن القيم يتحدث عن منزلة يبلغها أهل المقامات العالية في الإيمان، وهو أنهم لا يتكلفون صرف أنفسهم عن الاشتغال بالماجريات والأخبار والأحداث وحكايات الناس، بل يجدون في أنفسهم استئصالها أصلًا، لاشتغال قلوبهم بما هو أجل وأعلى.

كما يشير ابن القيم إلى شيء من الحيل النفسية التي تداهم المؤمن في سيره إلى الله، وهو أنه قد يأتيه من يزيّن له الاشتغال بالماجريات والأحداث والأخبار من باب الظرف والأدب والتلطف للناس وستر الأحوال الإيمانية وإخفائها عنهم، ويكشف ابن القيم أن هذا «من خدع النفوس وتلييسها» . .

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق حامد النقي، دار الكتاب العربي، (ص: ٣/ ١٨١)، وفي الأصل: «عماجريات»، وانظر الطبعة التي حققت في رسائل جامعية: دار الصميعي، (ص: ٤/ ٣١٣١).

ومن دقائق المعاني في هذه المعالجة الجوزية التنبيه إلى أن فتح الباب للماجريات يحط الهمة وربما تعسر إعادتها، وأظن هذا الموضوع يستدعي لذهن القارئ الإشكالية التي سبق أن تناولناها، وهي أيلولة الانهماك في الماجريات إلى انحلال الدافعية وهبوط العزيمة، والركون والإخلاق والاستقامة للواقع، حتى ذكر ابن القيم أن العودة لسابق العزيمة قد يتعسر، ويستعصي استرداد الهمة، كما في نصه السابق (فإنه يحط الهمم العالية من أوجها إلى حضيضها، وربما يعز عليه أن يحصل همة أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه).

بواعث الماجريات:

وحين تعرض أبو حامد الغزالي لآفات اللسان في إحياء علوم الدين ذكر أمثلة من الماجريات والأخبار والأحداث والوقائع التي يشتغل الناس بها فقال:

(وحد الكلام فيما لا يعينك: أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مآل، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر . . .)^(١).

ونبه أبو حامد على أن من الدوافع التي تجر الإنسان للخوض في هذه الحكايات والأخبار غير النافعة هو الرغبة في إيناس

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المنهاج، (ص: ٤٠٧/٥).

الجلساء!، حيث يقول أبو حامد: (وأما سببه الباعث عليه: فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباشطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها)^(١).

وربما لاحظ القارئ أن هذه الأمثلة التي ذكرها أبو حامد للماجريات هي من «أحاديث الشأن الخاص»، حيث يضيع المرء الوقت في الحديث عن أسفاره ومشاهداته الخاصة، ويذكر لنا ابن الجوزي (٥٩٧هـ) أمثلة للماجريات ليست من الشأن الخاص، بل من أحاديث الشأن العام، حيث يقول ابن الجوزي:

(ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس...، ومنهم من يُقَطِّع الزمان بكثرة الحديث عن السلاطين، والغلاء والرخص، إلى غير ذلك، فعلمت أن الله تعالى لم يُطَّلع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وقفه وألهمه اغتنام ذلك، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)^(٢).

هذان المثالان اللذان ذكرهما ابن الجوزي (٥٩٧هـ) ﷺ، وهما أخبار الساسة والرؤساء والمسؤولين وقصصهم، والثاني أخبار الأسعار والسلع، ذكرهما وهو في القرن السادس الهجري، والمدهش حقًا أنهما ما يزالان موضوعين يستهلكان مجالسنا اليوم.

(١) المصدر السابق، (ص: ٤١٠/٥).

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار القلم، (ص: ٢٤١).

ومن الأوصاف السلبية المستعملة في لغتنا العصرية اليوم التي توصف بها مثل هذه المآجريات والحكايات، وصفها بأنها «كلام فارغ»، وهو تعبير شائع في اللسان اليومي المعاصر، وقد لفت انتباهي أن هذا التركيب استعمل -أيضاً- لدى علماء المسلمين في القرون المتقدمة، ومن ذلك قول ابن الجوزي (٥٩٧هـ) وهو يتوجع من أحوال بعض المنتسبين للعلم في عصره:

(كان المرید في بداية الزمان إذا أظلم قلبه، قصد زيارة بعض الصالحين، فانجلى ما أظلم، واليوم متى حصلت ذرة من الصدق لمرید، وكاد همه يجتمع وشتاته يتنظم، فخرج فلقي من يوماً إليه بعلم أوزهد، رأى عنده البطالين يجري معهم في مسلك الهذيان الذي لا ينفع، وأهون ما عليه تضييع الأوقات في «الحديث الفارغ»، فما يرجع المرید عن ذلك الوطن؛ إلا وقد اكتسب ظلمة في القلب، وشتاتاً في العزم، وغفلة عن ذكر الآخرة، فيعود مريض القلب، يتعب في معالجته أياماً كثيرة)^(١).

واستعمل النووي (٦٧٦هـ) هذا التركيب -أيضاً- فإنه في كتابه الأذكار لما تعرض للأذكار الواردة في الصلاة على الميت وأحوال الجنائز والمشي معها قال:

(وليحذر كل الحذر من الحديث بما لا فائدة فيه، فإن هذا وقت فكر وذكر يقبح فيه الغفلة واللهو، والاشتغال «بالحديث الفارغ»، فإن الكلام بما

(١) ابن الجوزي، صيد الخاطر، دار القلم، (ص: ٣٦٩).

لا فائدة فيه منهي عنه في جميع الأحوال، فكيف في هذا الحال؟!^(١).

- تأصيل الماَجَرِيَّات:

ومما يتفاضل فيه أهل العلم تفاضلاً لا ينضبط طرفاه مقدرة استحضار وانتزاع العمومات القرآنية والشواهد النبوية التي تدخل تحتها السؤالات والنوازل، وقد كان للفقهاء المربي ابن سعدي رحمته الله استنباط قرآني لطيف حول الاشتغال بالماَجَرِيَّات، حيث أدرجها في عموم مفهوم «لهو الحديث» الوارد في فواتح سورة لقمان في قول الله: ﴿وَمَنْ أُنَاسٍ مَّنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦].

حيث يقول ابن سعدي رحمته الله:

«لهو الحديث» أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو وباطل وهذيان، من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماَجَرِيَّات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا^(٢).

ومن التأصيلات العلمية لموقع الماَجَرِيَّات، والتي ذكرها أهل العلم، إدراجهم لها في حديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين أن

(١) النووي، الأذكار، تحقيق عامر ياسين، دار ابن خزيمة، (ص: ٣٢٠).

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن، تحقيق سعد الصميل، دار ابن الجوزي، (ص: ١٣٤٧/٣).

النبي ﷺ قال: (إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)^(١).

ففي هذا الحديث جملتان، وهما: «قيل وقال» و«كثرة السؤال»، فأيهما يشمل ما نحن بصدده؟ الحقيقة أن أهل العلم ذكروا احتمال شمول كلا الجملتين للانفعال بالماجرّيات، فقد قال العلامة القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) في كتابه إكمال المعلم:

(ومعنى «قيل وقال»: الخوض في أخبار الناس وحكايات ما لا يعنى من أحوالهم، قيل كذا، وقال فلان كذا، فقيل كذا...، و«كثرة السؤال» فيه تأويلات...، وقد يكون كثرة السؤال عن أخبار الناس وأحداث الزمان وما لا يعنى من الأمور، والاشتغال بمثل هذا، فتكون بمعنى النهي عن «قيل وقال»)^(٢).

وكلمات القاضي عياض هذه تناقلها شراح الحديث من بعده مؤكدين على هذا التفسير والاستنباط.

حسناً، هذه منزلة الماجرّيات في نصوص الشارع وتحليلات العلماء والفقهاء، فلنتنقل الآن إلى صيغة جديدة معاصرة في تصدير الماجرّيات عبر الوسائل الشبكية.

(١) البخاري (٢٤٠٨)، مسلم (٥٩٣).

(٢) القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء، (ص: ٥٦٩/٥).

الفصل الثاني

الماجريات الشبكية

مدخل

في العام ١٩٩٥م سبك الطبيب النفسي الأمريكي إيفان جولديبرج مصطلح «اضطراب إدمان الانترنت» (Internet Addiction Disorder) والذي بات يشار له اختصارًا (IAD)، ولكن لم يكن الأمر موضع اهتمام فعلي^(١).

ثم في العام ١٩٩٦م عرضت المتخصصة النفسية الأمريكية د. كيمبرلي يونج في مؤتمر متخصص دراسة جادة في تتبع الموضوع بعنوان (إدمان الانترنت: ظهور اضطراب عيادي جديد) وعرضتها في المؤتمر السنوي للجمعية النفسية الأمريكية، والذي عقد في تورنتو، ونشرت الورقة بعد ذلك في أحد الدوريات النفسية المتخصصة^(٢).

ولكن كيف استطاعت د. يونج دراسة هذه الظاهرة كإدمان مع

(١) Yan Z. (ed), *Encyclopedia of Cyber Behavior*, IGI Global, 2012, p. 755.

(٢) Young K., Internet addiction: the emergence of a new clinical disorder, *CyberPsychology and Behavior*, 1(3), 1998, pp. 237-244.

أنها غير مصنفة مرضياً في الدليل التشخيصي للاضطرابات النفسية (DSM) الذي اعتمده الجمعية الأمريكية للطب النفسي (APA) والذي يعتبر المرجع الحاكم في هذا الحقل في الأمريكتين؟ الحقيقة أن د. يونج أخذت من هذا الدليل بإصداره الرابع آنذاك (DSM-IV; APA, 1994) معيار «اللعب المرضي للقمار» وتوصلت الدراسة إلى أن عددًا من أفراد العينة من مستخدمي الانترنت يعاني من نفس الأعراض المصاحبة «اللعب المرضي للقمار»، المعتمد في الدليل الرسمي، مما يعني أنه تخريبًا على المعايير المعتمدة هناك «استخدام مرضي للانترنت»، وأعيد التأكيد أن هذه النتيجة تخريبية لا تطبيقية.

وتقول د. يونج ملخصة النموذج البحثي المستعمل، والنتيجة التي توصلت لها، في هذه الدراسة المبكرة المشار لها، التي كانت في أواسط التسعينات الميلادية:

(تشير النتائج الحالية إلى أن بعض مستخدمي الشبكة أصبحوا مدمنين على الانترنت قريبًا من الحالة التي يصبح فيها آخرون مدمنين على المخدرات والكحول والقمار، والتي تظهر في الإخفاق الدراسي، وتدهور الأداء المهني، بل حتى الانفصال الأسري. والبحث العيادي حول الإدمانات السلوكية ركّز على لعب القمار القهري والإفراط في تناول الطعام، والسلوك الجنسي القهري... وباستعمال «اللعب المرضي بالقمار» كنموذج، فإن إدمان الانترنت يمكن تحديده بأنه حالة «اضطراب التحكم في الاندفاعية» والتي لا تتطلب مواد مُسكرة^(١).

(١) Ibid.

وواصلت د. يونج اهتمامها حول الموضوع بشكل مكثف، وأصدرت بحوثًا كثيرة، وكتبًا مفردة ومشاركة، كلها مخصصة لظاهرة إدمان الانترنت.

ثم انهمرت الدراسات والبحوث الأكاديمية والعيادية حول الموضوع وكثرت بصورة لافتة، وشارك فيها باحثون من جنسيات مختلفة، وبرز الاهتمام الرسمي أيضًا بالموضوع.

وفي المركز الطبي بجامعة ستانفورد قام خمسة من الباحثين بإجراء دراسة توصلوا فيها إلى أن واحدًا من كل ثمانية أمريكيين يعاني من أحد أعراض الاستعمال المرضي للانترنت، ونشرت الدراسة عام ٢٠٠٦م^(١).

وأفاد ٢٠% من طلاب جامعة هارفارد أن استخدام الانترنت بات يعرقل تحصيلهم الدراسي وأنهم يسألون عن علاج لهذه الحالة^(٢).

وتزامنًا مع تفاقم المشكلة تبنت بعض وزارات الصحة في بعض الدول إنشاء ونشر المراكز الاستشارية التأهيلية لعلاج إدمان الانترنت، حتى أنه في العام ٢٠٠٧م بلغت عدد المراكز الاستشارية لعلاج إدمان الانترنت في كوريا الجنوبية (١٤٠) مركزًا^(٣)!

(١) Aboujaoude E., Koran L. M., Gamel N., Large M. D. & Serpe R. T., Potential markers for problematic Internet use, *CNS Spectrums, The International Journal of Neuropsychiatric Medicine*, 11(10), 2006, pp. 750-755.

(٢) Weintraub P., et al., Internet addiction. In Ruiz P. & Strain E. (ed), *Lowinson and Ruiz's Substance Abuse*, Lippincott Williams & Wilkins, 5ed, 2011, p. 407.

(٣) Fackler M., In Korea a boot camp cure for Web obsession, *The New York Times*, November 18, 2007.

وبحسب ما لاحظته في البحوث ذات الصلة فإن كوريا الجنوبية أكثر الدول قلقًا حيال الموضوع، واهتمامًا بعلاجه، وينقل المختصون عنها حالات في غاية الغرابة لإدمان الشبكة والانهماك فيها واستحواذها على الشخصية، كالسهر طوال الليل دون نوم، وترك الذهاب لقضاء الحاجة بما يتسبب بأضرار الاحتباس، وإهمال الضرورات الحياتية، الخ.

والباحثون الذين درسوا هذه الظاهرة تفاوتت نماذجهم التفسيرية المتخصصة في قراءة الظاهرة، فمنها: النموذج المعرفي-السلوكي (Cognitive-Behavioral Model)^(١)، والنموذج العصبي الوظيفي (Neurophysiological Model)، ونظرية التعويض (Compensation Theory)، ونحوها، وهي مداخل ونماذج متخصصة ليس هذا الموضع المناسب لعرضها، ويمكن للمستزيد مراجعة الأبحاث المتخصصة، أو الكتب الجامعة التي تستوعب خلاصات هذه الدراسات^(٢).

ورغم اتفاق الباحثين في هذا الحقل على هذه الظواهر المرضية إلا أنهم يختلفون في تصنيفها هل يصنف فعلاً اضطراب إدمان (addiction disorder)؟ أم هو مجرد استعمال مَرَضِي ومُشكِل

(١) Davis R. A., A cognitive-behavioral model of pathological Internet use, *Computers in Human Behavior*, 17, 2001, pp.187-195.

(٢) Montag C. & Reuter M. (eds), *Internet Addiction: Neuroscientific Approaches and Therapeutical Interventions*, Springer, 2015.

لمحتويات محددة في شبكة الانترنت (problematic internet use)؟، وهو جدل تصنيفي تخصصي يخرج عن إطار اهتمامنا هنا ويمكن مراجعته في الدراسات التي عنت بعرضه^(١).

إدمان التواصل الشبكي (SNS addiction):

ينبّه الباحثون في هذا الحقل إلى أنه ليس المراد بالإدمان الشبكي إدمان الآلات المادية المحسوسة لهذه الأجهزة التقنية، وإنما مرادهم -بطبيعة الحال- إدمان المحتوى ذاته وإنما هذه الأجهزة وسائط^(٢)، وبشكل أكثر تحديداً فإن المحتوى الذي يشار له في هذه الدراسات هو شبكات التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة وألعاب الفيديو والقمار الإلكتروني والمواد الإباحية ونحوها، كما سيأتي الإشارة إليه، ويحظى الإفراط في الانهماك في شبكات التواصل الاجتماعي بدراسات خاصة تسمى اختصاراً (SNS addiction)، وهو يعنينا في موضوع كتابنا هذا أكثر من غيره من صور الإدمان الشبكي لأنه -وبحسب اطلاعي- هو أكثر المحتويات الشبكية قدرة على اصطياح الشرائح الجادة المشغولة بالعلم والإصلاح.

(١) Mitchell P., Internet addiction: genuine diagnosis or not?, *The Lancet*, 355(9204), 2000, p.632; Yellowlees P. & Marks S., Problematic internet use or internet addiction?, *Computers in Human Behavior*, 23(3), 2007, p.1447-1453.

(٢) Taintor Z., Internet/computer addiction. In Lowinson J., et al, (eds), *Substance Abuse: A Comprehensive Textbook*, Lippincott Williams & Wilkins, 2005, p. 54.

التصفح القسري:

ومن الملاحظ أن بعض الناس أثناء الأوقات الجادة المخصصة للمهام، كاجتماع عمل أو حضور درس أو مذاكرة اختبار أو بحث علمي أو ساعة ذُكر وتلاوة ونحو ذلك، تتسلل يده مرارًا إلى هاتفه الذكي ويفتح شبكات التواصل مثلًا، ويبدأ إبهامه في تمرير الصفحات، فهل هذه مجرد عادة (habit) أم هي إدمان (addiction)؟ المتخصصون في هذا الحقل يشيخ بينهم التأكيد على أن الفارق بين العادة والإدمان هو صفة «القهرية» (compulsive)، فالعادة تظل محكومة بالقدرة على السيطرة على الإرادة، بخلاف الإدمان الذي يتحول إلى سلوك قهري.

الأعراض الانسحابية:

من المفاهيم التقليدية المعروفة في الإدمان الكيميائي ما يسمى «الأعراض الانسحابية» (withdrawal symptoms)⁽¹⁾، وهي حالة تصيب الجسم عند التوقف المفاجئ عن المواد التي أدمن عليها، حيث يبدأ انسحاب السموم من الجسم، وهذه الأعراض المصاحبة مثل التوتر والقلق والغثيان ونحوها، ومن الملاحظات الطريفة التي تشير إليها دراسات هذا الموضوع، أن العينات محل الدراسة التي تم تشخيصها بأنها مدمنة على الانترنت، وهو إدمان سلوكي وليس

(1) Feldman R. S., et al, *Principles of Neuropsychopharmacology*, Sinauer Associates, p. 604, 649.

كيميائي، ظهر عليها أيضًا «الأعراض الانسحابية» عند التوقف المفاجئ عن استخدام الانترنت، فيظهر عليها الغضب والقلق والتوتر والانزعاج^(١).

وهذه الحالة التي تذكرها هذه الدراسات تؤكدها التجارب الشخصية أيضًا، وما زلت أتذكر أحد الأصدقاء تأخر كثيرًا في تسليم رسالته العلمية، ولاحظ أن شبكات التواصل تلتهم عليه وقته وتفترس تركيزه الذهني والنفسي، فقرر حذف حسابه، ويروي هذا الصديق كيف كان يشعر بتوتر في اليوم الأول، وكيف كانت تقرصه يده للدخول لما اعتاد عليه، بل حدثني شخصيًا وهو مندهش كيف لاحظ أبنائه فظاظته في التعامل معهم في الساعات الأولى التي حرم نفسه فيها من الدخول لشبكات التواصل، وهذه الحالة هي عينها «الأعراض الانسحابية» (withdrawal symptoms) التي رصدتها الدراسات التجريبية الجادة في هذا الحقل.

إغراء أم مهرب؟

ومن التصورات الشائعة: الظن أن العامل الجوهري في الإدمان الشبكي هو بفعل الجاذبية الاستثنائية للمحتوى على الانترنت بحيث يخلب المرء عن المهام الأخرى، وهذا التصور غير دقيق البتة، فقد أكدت دراسات هذا الحقل أن الإدمان الشبكي

(١) Shek D., et al, Internet addiction. In Pfaff D. (ed), *Neuroscience in the 21st Century: From Basic to Clinical*, Springer, 2012, pp. 2777-2782.

كثيراً ما يكون «آلية هروب نفسي» (psychological escape mechanism) للفرار من تعقيدات المهام والمطالب العلمية والعملية، كما يقول مثلاً بعض الباحثين (هذا النوع من التفكير المكروب قد يقود إلى استخدام قهري للإنترنت لتوفير آلية هروب نفسي لتحاكي المشكلات الحقيقية أو المتخيلة)^(١).

ومما يؤكد -مثلاً- هذه النتيجة التي يذكرها الباحثون أن المرء يلاحظ في التجارب الشخصية أن الطلاب يتكثف شعورهم بالإلحاح النفسي الداخلي لزيارة مواقعهم المفضلة على الشبكة في أوقات ضغط المهام، كأوقات الاختبارات الدراسية أو في أوقات العبادة الجادة في رمضان ونحو ذلك، وليس ذلك لإغراء هذه المواقع بقدر ما هو حيلة ذاتية للتنفس خارج ضغط المهام المكتظة أو الثقيلة.

التصفح الملثم:

ومن أكثر الظواهر التي كشفتها دراسات هذا الموضوع لفتاً للانتباه هو محاولة المفرط في استعمال الانترنت الكذب أو إخفاء الوقت الحقيقي الذي مكثه في استعمال الانترنت، وإظهار أنه وقت قليل وعابر، حتى أن عددًا من دارسي هذا الموضوع اعتبره من علامات الإدمان الشبكي، كما يقول بعض الباحثين (العلامات التي قد تشير إلى إدمان الانترنت تشمل الآتي: ... محاولة إخفاء أو تمويه

(١) Young K. & de Abreu C. (eds), *Internet Addiction*, John Wiley & Sons, 2011, p. 8.

كمية الوقت المستغرقة على الشبكة^(١).

ويعتبر هذا السلوك الطريف أحد أدوات مقياس اختبار إدمان الانترنت (IAT)، حيث يوجد في هذا المقياس سؤال يقول (-كم عدد المرات التي حاولت فيها إخفاء مدة مكثك على الشبكة؟)^(٢).

وهذه الحالة التي تشير لها هذه الدراسات هي بصراحة أكثر عَرَض استحوذ على انتباهي، فالدراسات الإنسانية التي يقرؤها الباحث ويتفاعل مع نتائجها ورصدياتها تتفاوت دوافعه في هذا التفاعل، فتارة تجده يقتبس منها مادةً في بحوثه ويستشهد بها لا لأنها كشفت له جديدًا وإنما لأنها برهنت له ظاهرة يعرفها من قبل، فهو يستفيد من هذه الدراسة ليحول الفكرة من مجرد ملاحظة شخصية إلى معطى بحثي تطمئن له النفوس، وتارة أخرى يقتبس من هذه الدراسات ويحيل إليها لا لأنها أيضًا كشفت له جديدًا؛ بل لأن الدارس استطاع صياغتها في جملة فنية اصطلاحية تمكّن من تداولها كمعطى بدلًا من كونها صورة عائمة في الذهن تشرق في غير وقتها وتغرب حين الحاجة لها، وأما هذه النتيجة التي نحن بصدددها وهي «إخفاء وقت المكث على الشبكة» فبكل صراحة لم أنظن لها مسبقًا باعتبارها مظهرًا من مظاهر التعامل المرضي مع

(١) Bosij P., *The Dark Side of the Internet*, Greenwood Publishing Group, 2006, p.198.

(٢) Aboujaoude E. & Koran L. (eds), *Impulse Control Disorders*, Cambridge University Press, 2010, p. 294

الانترنت، وحين قرأت هذه الدراسات حول هذا العَرَض بدأت
الذكريات تنساب حول بعض الأحداث التي فسرها لي هذا
المفهوم.

لقد تذكرت مثلاً أحد الأصدقاء وهو ييوح لي بمعاناته ويفضي
لي بمعاركه النفسية مع الاستغراق في الشبكة، كان يقول لي أنه
يخجل من أن يتفطن الناس لمدة جلوسه على شبكات التواصل،
لدرجة أنه أحياناً يمسك هاتفه الذكي بطريقة مُمالة لئلا يرى
المجاورون حقيقة ما يصنعه ويوهمهم أنه يراجع بهاتفه مجرد أمرٍ
عارضٍ هام .. وحكى لي أحد طلبة العلم المميزين أنه يدخل
متخفياً إلى شبكات التواصل، بل ويشبع شهوة التعليق أحياناً
بأسماء مستعارة؛ كل ذلك لئلا ينصدم الآخرون باستهلاك وقته في
هذه الشبكات وهم يظنونه طالب علم جاد لا يطيق رفع عينيه عن
كتابه ..

ولا أحصي كم سمعت طويلب علم يردد أنه لا يعلم ما في
هذه الشبكات وأنه مشغول، وربما أبدى التعجب في البداية
لبعض ما ينقله الجلساء عنها، حتى إذا ثار الحديث عن آخر
المعارك الشبكية نسي نفسه وتحدث حديث المتابع لأدق تفاصيلها ..
لكنه يخفي متابعته خجلاً من الناس أن تتخلخل صورته الذهنية
العلمية السامقة في تصوراتهم .. وكم للنفوس من أغوار نائية
سحيقة ..